"أن تقتل طائرًا بريئًا" ما بين التفرقة العنصرية وسمو القيم"

لا يمكن أن أبدأ في الحديث عن رواية " أن تقتل طائرًا بريئًا" دون الإشارة في البداية إلي ذلك المجهود الذي بذلته المترجمة داليا الشيال لخروج الرواية بهذا الشكل الذي جذبنا إلى قراءتها وجعلنا نشيد بالرواية والكاتبة والمترجمة حق الإشادة.

فقد أهدت المترجمة للقارئ العربي رواية أمريكية تحمل الكثير من العادات والتقاليد الخاصة بالمجتمع الأمريكي، فهي لم تترجم فقط اللغة من الإنجليزية إلى العربية، لكنها نقلت لنا أيضا مع تلك الترجمة الكثير من القيم الإنسانية السامية و النبيلة كتلك التي حاول أتيكوس وكال وضعها في سكاوت وجيم طوال أحداث الرواية، كقيمة كرم الضيافة، و قيمة العدالة التي يجب أن نحكم بها دون تفرقة علي أساس جنس أو عرق أو لون، فقد أوضحت بأسلوب مبسط كيف كانت القوانين الأمريكية مفتقدة لتلك العدالة آنذاك سواء على مستوى المجتمع الأمريكي عمومًا أو في مقاطعة مايكوم ــ مكان سير أحداث الرواية ــ علي الأخص، وقد ظهر ذلك جليًّا في عدم تمكن هيئة المحلفين من الحكم بالبراءة على زنجي ضد أبيض حتى وإن لم يكن مذنبًا.

وكذلك نقلت لنا كيف كانت التفرقة العنصرية منتشرة إلى أبعد ما يمكن آنذاك بين السود والبيض سواء في العمل أو الزواج أو حتى المثول أمام القضاء الأمريكي والذي يجب أن يحكم بالعدل بصرف النظر عن ذلك الشخص الذي يُطبق عليه هذا العدل.

وأيضًا نقلت جميع الصفات السيئة حينما تتجمع في شخصية واحدة والتي تتجسد في شخصية بوب يوويل الذي طاوعه ضميره وحاول بانحطاط أخلاقه قتل طفلين لا ذنب لهما سوى أنهما أبناء رجل أراد بوب الانتقام منه لدفاعه عن المتهم باغتصاب ابنته، وكيف كان يحاول مضايقة هيلين -أرملة بوب- أثناء ذهابها إلى العمل وعودتها منه، وكذلك معاملته السيئة لأتيكوس أينما وحينما يراه، وبصقه في وجهه أكثر من مرة وذلك يثبت أن أي مجتمع مثلما يوجد بداخله أشخاص

جديرون بالاحترام مثل أتيكوس به أيضا أشخاص يفتقدون ونفتقد لهم جميع معاني الاحترام مثل بوب يوويل.

وفي نفس السياق فإنني أريد أن أشيد بالمجهود الذي بذلته المترجمة في توضيح ما يصعب فهمه على القارئ في هوامش صفحات الرواية كتوضيح أسماء شخصيات ومعارك ومعاني وغير ذلك من مصطلحات ربما لا تكون واضحة ومفهومة في ذهن القارئ.

وأولى النقاط التي أود أن أتطرق إليها هو التشابه بين بطلة الرواية وكاتبتها، فقد وجدت إسقاطًا واضحًا في الرواية بين شخصية سكاوت بطلة الرواية والشخصية الحقيقية للكاتبة هاربر لي من حيث العديد من الأوجه، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: أن أتيكوس والد سكاوت كان محاميًا قام بالدفاع عن رجل أسود اتهم باغتصاب امرأة بيضاء وحكم عليه أنه مذنب، وكذلك كان ألماسا كولمان لي والد هاربر لي محاميًا أيضًا دافع عن اثنين من الرجال السود المتهمين بقتل عامل متجر أبيض وحكم على موكليه كليهما بالإعدام.

وكذلك كانت سكاوت عنيدة تتشبه بالصبية وظهر هذا في مواضع عدة بالرواية كان أبرزها حب سكاوت لارتداء الأفرول مثل الأولاد، وكذلك تشاجرها الدائم مع زملائها أثناء الدراسة ومنهم وولتر كاننجهام، بسبب أنهم يدَعون على أبيها أنه محب للزنوج ومدافع عنهم، ولكن العهد الذي تم بينها وبين أبيها وهو ألا تتشاجر مع أحد إذا قال ما لا يرضيها عنه جعلها تحجم عن ذلك، وعلى الجانب الآخر فقد كانت هاربر لي عنيدة تتشبه بالرجال وتتشاجر في الملعب وتجادل مدرسيها.

وقد ظهر الإسقاط واضحًا بين الشخصيتين في وجود ديل وهو صديق سكاوت وجيم الدائم، فقد كانت هاربر لي تربطها علاقة صداقة وطيدة بجارها وزميلها ترومان كابوتي.

وقد أثرت أربع نقاط في الرواية في شخصيتي أكبر الأثر أعرضهما في السطور القليلة القادمة:

أولى تلك النقاط هي كيف كان الأب أتيكوس يعلم ابنيه ألا يحاولا قتل طائر محاكي، وقد ظهر ذلك في الرواية حينما أهدى أتيكوس طفليه بندقيتين في عيد الميلاد وحينما وافق العم جاك على تعليمهما التصويب، قال أتيكوس لجيم ناصحًا وموجهاً إياه إلى الطريق الصواب "أفضل أن تقوم بالتصويب تجاه العلب الصفيح في الفناء الخلفي، ولكني أعلم أنك ستطارد الطيور؛ بإمكانك اصطياد ما تريده من نوع البلوجاي، هذا إن استطعت إصابتها، ولكن تذكر أنها خطيئة أن تقتل طائرًا محاكيًا"، وقد أكدت ذلك المعنى الآنسة مودي لسكاوت موضحة لها هذه العبارة بشيء من التفصيل قائلة: "والدك محق؛ فالطيور المحاكية لا تفعل شيئًا سوى أنها تعزف لنا الموسيقى كي نستمتع بها ... إنها لا تلتهم ما نزرع، و لا تعشش في حقول الذرة، وهي لا تفعل شيئًا سوى أنها تغني من قلوبها لأجلنا. لذا فإنها خطيئة أن تقتل طائرًا محاكيًا".

وفي اعتقادي أن سكاوت تعلمت هذا الدرس جيدًا والدليل على ذلك أنها في نهاية الرواية حينما سمعت كلام السيد تيت -مأمور المقاطعة مايكوم- أنها ستعد خطيئة إذا أخبرنا الناس في المقاطعة أن بو رادلي هو الذي أنقذ جيم وسكاوت من الموت على يد بوب يوويل، لأنه في هذه الحالة ستقوم كل السيدات في مايكوم بالطرق علي بابه و وجلب الكعك المحلّى له، لأن هذا سيلفت النظر إلى ذلك الذي قدم لأتيكوس ولبلدة مايكوم هذه الخدمة العظيمة، ويجرّه إلي أضواء الشهرة وهو الخجول بطبعه، وقد أكدت سكاوت على هذا الكلام لأتيكوس بقولها إن ذلك سيكون أشبه بقتل طائر محاكي. فقد تأكدت أنا وجميع من قرأوا الرواية أيضًا من مدى جرم قتل طائر محاكي لا ذنب له سوى أنه يغني من أجلنا، ولهذا فقد وجدت من وجهة نظري أن قتل شهيد مثل الضابط محمد المتناوي يعد بمثابة قتل طائر محاكي.

وثانيهما لشخصية بو رادلي فقد يعتقد من يقرأ الرواية أنها شخصية ثانوية وضعت فقط كي يقوم الأطفال الثلاثة (جيم وسكاوت وديل) بالتسلية عن طريق محاولات مستمرة كي يخرج بو من عزلته ويلعب معهم أو كي يمثلون قصته التي

يعرفونها وجميع أهالي مايكوم (بو حاول أن يطعن والده بالمقص في ساقه أثناء قطعه لقصاصات من صحيفة مايكوم) علي هيئة مسرحية.

ولكننا نجد في نهاية الرواية أن تلك الشخصية هي محور الأحداث وأنها هي التي قامت بإنقاذ حياة جيم وسكاوت من يد بوب يوويل الذي حاول قتلهم انتقامًا من والدهم، و نجح بعد كل ذلك الصمت والاختفاء في دخول حياة الطفلين في اللحظة التي احتاجوا فيها لمساعدة أحد.

أما النقطة الثالثة والأهم التي أثرت في شخصيتي أثناء قراءة الرواية هي وفاة توم روبنسون دون إثبات براءته، فقد كان كذب ماييلا (فيوليت يوويل) فيما تقوله من أقوال أمام المحكمة واضحًا تمامًا والدليل علي ذلك حين سألها أتيكوس: هل تتذكرين أنه (توم) ضربك على وجهك؟، فلم تُجب فكرر عليها السؤال مرة أخرى فلم تُجب أيضًا، وحينما انفعل وسألها للمرة الثالثة، أجابت قائلة: "لا، لا أذكر أنه ضربني. أعني أني أتذكر، لقد ضربني. أجل."

علي الجانب الآخر حاول توم روبنسون إثبات صحة كلامه حينما قال إنه "حين كان يحاول الوصول إلى الصندوق (الخزانة) التي طلبت منه ماييلا أن يكرسها لها وجدها أمسكت به من ساقه وكان نتيجة ذلك أنه وقع وقلب الكرسي "وكان ذاك هو الشيء الوحيد، قطعة الأثاث الوحيدة التي تحركت من مكانها في تلك الغرفة" قبل أن يغادرها.

وقد بذل أتيكوس محاولات عديدة في إثبات براءة توم عن طريق إثبات أن توم بريء وأن والد ماييلا حينما يشرب (خمرًا) لا يكون محتملاً ويمكن له أن يفعل أي شيء حتى أنه يمكن أن يضرب ماييلا، وهذا دليل على أن الفاعل الحقيقي لهذه الحادثة هو والد ماييلا والدليل على ذلك أنه رآها عبر النافذة أثناء وقوع الحادث وراح يصرخ قائلاً: "أيتها العاهرة الملعونة سأقتلك".

كل هذه الأدلة توضح أن توم روبنسون بريء وأنه كان من الضروري إثبات براءته –قبل أن يُقتل– ليس فقط أمام المحكمة وهيئة المحلفين وممثل الادعاء، ولكن أيضًا أمام جميع أهل مايكوم وخاصة السود و الزنوج منهم حتى يستطيعوا هم وهيلين وأبناؤها أن يستمروا في العيش في مقاطعة مايكوم رافعين رأسهم دون خجل أو شعور بالعار.

أما النقطة الرابعة و الأخيرة التي أثرت كثيرًا في شخصيتي هو أتيكوس فينش ذلك الرجل صاحب المبادئ والقيم والذي يحاول أن يبذل قصارى جهده حتى يضع أطفاله على الطريق السليم كي يعيشا دائمًا بإحساس الشرف رافعين رأسهم أمام العالم يفعلان ما يمليه عليهما ضميرهما حتى وإن كانت النتيجة غير مضمونة التحقق كما قال أتيكوس في الرواية، فقد لفت نظري و أعجبني للغاية النصيحة التي نصح بها أتيكوس ابنته سكاوت في الرواية وهي: "لن تفهم شخصًا أبدًا إلا بعد أن تأخذ بعين الاعتبار وجهة نظره وبعد أن تضع نفسك مكانه".

فهو قام بالدفاع عن توم في قضيته وبذل جهدًا كبيرًا كي يكسبها حتى يستطيع أن يرفع رأسه هو وولداه في البلدة، و أن يعيش الولدان فخورين بوالدهما.

وفي النهاية أود أن أوضح أن رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» ثرية بالكثير والكثير فعلى الرغم من أنها رصدت فترة من الحكم الأمريكي كان التعصب والتفرقة العنصرية هي الأساس بها إلا أنها تحمل أيضا الكثير من المعاني والقيم والمثل والمبادئ وكذلك العادات والتقاليد والمعتقدات والقوانين التي تجعل منها رواية تستحق الحصول على أكبر الجوائز على مستوى العالم مثل جائزة بوليتزر للكتاب عام ١٩٦١ والأهم من الجوائز المادية هي جائزة تقدير واحترام الجمهور لتلك الرواية التي تستحق وبجدارة هذا التقدير و الاحترام.

ولا أجد ختامًا لمقالي هذا أفضل من مقولة أتيكوس فينش والتي أتفق معها مئة بالمائة والتي تحمل في مضمونها أنبل قيمة يمكن أن نُعلمها لأبنائنا وهي: "الشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الإنسان".